تلك الشخصيات – الرموز، هي محركة الحدث الروائي وصانعته، فهو اذن حدث (رمزي) يبحث الكاتب من خلاله لايجاد المعادل (الفني) لأحداث التاريخ الفلسطيني الذي شهد سقوط الأرض سنة ١٩٤٨. ولذلك، فان الشخصيات والاحداث لا تتحرك الا على مسرح مكاني وهمي يلبي حاجة الوهم السائد.

فالمعادل الوهمي لفلسطين تمثله القرية مسرح الحدث. انها مجرد ديكور رديء الصنعة للقرية بشكلها العام، تزداد رداءته اذا ما تطاول في ادعائه بتمثيل الخاص، أي كقرية فلسطينية.

فالقرية، في الرواية، لا تشبه أية قرية فلسطينية، ولا أية قرية، ولا تكون ذاتها كقرية. انها مبنى ذهني ضيق يدعي الاتساع واستيعاب احداث أكبر من حجمه، ومثل هذا الادعاء يظل يحمل بذور موته.

فقد أباح الكاتب لخياله المتميز بخصبه الكيماوي، صنع قرية فلسطينية «نموذجية»، فيها الباشا والبك والخواجا والانكليز واليهود الطيبون واليهود الاشرار، وفيها الثوار والرجعيون والانتهازيون، وفيها الفلاحون البسطاء وأسيادهم، وفيها طبقة عاملة تقوم بالاضرابات (ففي القرية مصنع كبير قادر على تكوين طبقة عاملة!)، وفيها مقهى – خمارة، في طابقه العلوي بيت دعارة!!... و...« كانت القرية جميلة، تتفتح في الصباح، بجمالها العذري» (ص٢٨٤). فأين هي العذرية التي ابقاها الكاتب لقريته؟

على أرض مثل هذه القرية الكرتونية، قزّم الكاتب أحداث التاريخ، وجعل الاحداث فوقها صورة متناهية في الصغر للاحداث الفلسطينية حتى سقوط فلسطين سنة ١٩٤٨. فكل حدث في التاريخ يتضاءل في صورة حدث روائي «رمزي» يوازيه، كانسحاب بريطانيا من فلسطين، وقرار التقسيم، ودخول الجيوش العربية، والهزيمة. ولذلك، فان الحدث الروائي لا يقوم بذاته، وإنما كمعادل «رمزي» لصورة الواقع وأحداث التاريخ.

ولان «رموز» أفنان القاسم المسفّة، تبقى غير قادرة على تحقيق فكرتها بقناعة الرمز الموحي، فان الكاتب يعود إليها من جديد ليعيد كتابتها بشكل آخر أشد تهالكاً، وذلك طمعاً في الوصول إلى الفكرة نفسها، أي بالمباشرة. فلنقرأ مثلاً: «... وللمرة الأولى – باكثر ما يكون وضوحاً – وجد حمدان ذاته، في عتمة الاستعمار والاقطاع والرجعية. ورأى آثار الاقدام الغريبة التي تلوث وجه أرضه. هذه هي يا حمدان: لكي تعيد سعدية إلى ذراعيك أن تناضل في كل صوب، ضد الخواجا، وبالقدر ذاته ضد الباشا والانجليز. ان تسقط مياكلهم كلها، هذا العهد المعتم المريض، أن تنزع شجرة الخواجا الصهيونية التي تثمر بالغدر، وتقضي على اطماعه، كذلك شجرة الباشا العجوز التي تنخر بالسوس. أن تزرع شجرة الحرية. لكم هي كثيرة مهماتك الشريفة! تقدم» (ص٣٣٤ – ٣٣٥).

□ □ □

وتتقدم رواية «النقيض»[٤] لتعيد طرح المسائل بالاسلوب ذاته، وان بشخصيات وأحداث مغايرة.